## من تراب الطريق (٢٩٨)

# بين التفاهة والعظمة(*)

لا أعرف متى وأين سئل نابليون بونابرت ، لماذا لا نجد «عظماء» فى السلطة ، ولكنى أعرف أنه أجاب بأن السبب أن التفاهة المطلقة هى اللازمة لكى تحصل على السلطة ، ولكن العظمة الحقيقية هى الواجبة لممارسة السلطة .. وأعرف أيضا أن هذه العبارة «واقعية» برغم ما فيها من مرارة صادمة .. قلائل بل نادرون من استطاعوا أن يجمعوا بين النقيضين : التفاهة ، والعظمة !!

أيسر السبل ، بالتفاهة ، أن تصل إلى السلطة .. أى سلطة .. فالتفاهة ليست مرتقى صعبا .. ما على الآدمى إلاَّ أن يخرج نفسه من منظومة القيم والوقار واحترام الذات ، ليطلق للنفس الأمّارة الحبل على الغارب لتمارس التفاهة التى لا تكبدها عناءً ولا تقتضيها جهدًا ، وهى أسرع لدى الناس قبولًا لأنها أيسر تحصيلا ما دامت تدغدغ المشاعر وتطلق الأوهام .. ما عليك إلاّ أن تكون «التفاهة» لسان خطابك وحال سلوكك وأفعالك !!

الدرقة المحيطة بالسلطة ، أى سلطة ، لا تحب أن تفسح سبيلا للعظمة والعظماء ؛ لأنهم يقتطعون منها ، والناس لا تميل ولا تُقبل على العظمة والعظماء لأنها تنفر بطبعها من كل مقارنة تشعرها بالضآلة أو النقص أو الدونية !

مرتقى التفاهة إلى السلطة مرتقى سهل وميسور الوصول إلى مأربه ..

(*) المال ٢١/ ٧/ ٢٠٠٩

وربما حسب المفسحون للتفاهة أنهم سيركبون صاحبها باكر ، فتطمعهم تفاهته فى تحقيق أغراضهم ومآربهم .. هذا المرتقى السهل الميسور لا تحديات فيه ولا امتحانات ، ولا صعاب ولا عراقيل ، ولا قدرات أو مضامين !!

بيد أن سلاسة الوصول إلى السلطة ، لا تعنى القدرة على ممارستها .. فالوصول إلى السلطة قد تجدى فيه التفاهة والتغرير ، ولكن ممارسة السلطة مسئولية تحتاج إلى عظمة وقدرة ، ولا تقبل التفاهة !. وهنا التحدى الكبير والمعضلة الصعبة .. فكيف يستطيع تافه أن يخرج من قمقم التفاهة إلى العظمة ، وكيف يجتمع النقيضان فيجمع الفرد الواحد بين التفاهة والعظمة ، وهل يمكن للتافه أو سالك ومعتاد التفاهة ، أن يتعاظم فجأة فيرتفع إلى ما تحتاجه وتستوجبه السلطة وممارستها من قوة وشجاعة وحكمة ومقدرة وعلم ومعرفة وفن وشخصية .. إن هذه المقومات تصب فى نهر «العظمة» .. والعظمة لا تنبت للفرد فجأة ، وإنما هى مقومات محفورة فى نسيجه وشخصيته .. هذا المحفور أشبه بتضاريس الجغرافيا التى تخطها السنون والمناخ والبيئة والتربة ، فى تفاعل لا يستغنى عن التوفيق ، وإلاّ صارت التضاريس خبط عشواء لا تشكل شيئا ذا قيمة ، وهكذا كل تافه بترك نفسه وتكوينه ومساره للمقادير .

تورّمَ فى التاريخ أشخاص لو درست تاريخهم بموضوعية وإمعان ، لعرفت أن كلًا منهم مارس كل أنواع التفاهة والخداع والديماجوجية والانتهازية والتغرير واللعب بالإعلام وبمشاعر البسطاء ليصل إلى السلطة التى قفز عليها ، فلما وصل إليها لم يستطع أن يكون عظيمًا عظمة حقيقية تواكب مقتضيات ولوازم السلطة فانتهت حياته نهاية مأساوية !

لأنه ظل فى جميع ممارساته مشدودًا لما اعتاده من أساليب وإن خدعت وفتحت الأبواب لركوب السلطة ، إلاّ أنها لا تصادف ولا تصادق العظمة الحقيقية الضرورية الواجبة لممارستها وحسن إدارة وتصريف الأمور !

ما يصدق على المتورمين فى التاريخ ، له أمثلة عديدة فى تاريخ العاديين والصغار على السواء .. تستطيع أن تجد مشاهير بلا قدرة ولا استحقاق ، وتستطيع أن ترى فى الصغار نماذج بالآلاف لا حصر لها .. لمعوا ثم انطفأوا بسرعة أقرب إلى احتراقات النيازك والشهب .. والسبب أن التفاهة تستطيع أن تضحك على بعض الناس بعض الوقت ، ولكنها لا يمكن أن تنطلى على كل الناس طول الوقت .. والعيون التى تفسح الطريق لطالب السلطة عيون ضريرة لأنها معلقة بالأوهام مخدورة بحبكة الحيل وتغرير الخدع والأكاذيب .. ولكن هذه العيون ينكشف عنها الغطاء وهى تتابع وتراقب ممارسة السلطة ، وهى مراقبة يفرضها انتظار الموعود .. فإذا تأخر ، تفنجلت العيون وأبعدت أكثر ، ولم يعد أمام صاحب السلطة للمحافظة على ما تحقق له ، إلاّ أن يستعير «عظمة» من المحال أن تكون محلا لاقتراض أو إقراض !

هل حلت أو يمكن أن تحل التفاهة مكان القدرة والكفاءة والعظمة الحقيقية ؟!.. لا يحدث ذلك إن حدث إلاّ فى العدسات اللامة لعيون ضريرة بلا رؤية ولا بصيرة .. ولا ينطلى إلاّ على تعاريج نفوس ضامرة ملهية بالأضغاث مخدورة بالخدع والأحابيل .. من المؤسف أن أحدًا لم يعد يتعظ من دروس التاريخ ليستمر التأرجح الدائم فى لعبة السلطة ، بين التفاهة السهلة الشائعة ، والعظمة العزيزة النادرة !!!